الباب الأول
فن الزخرفة الصينى

* مقدمـــــــــة

* سمات الفن الصينى

* أمثلـــــــــــة

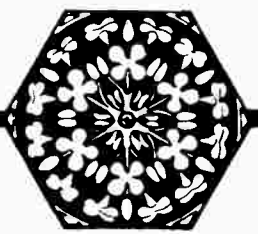

مقدمـــــة

فن الزخرفة الصيني جديربالبحث والفهم للأسلوب المتناول في تنفيذه . فهو أسلوب يتوافق مع عظمة الإمبراطورية الصينية القديمة التي تضم بلاد الصين الأصلية والتبت ومنغوليا .

فالصين القديمة تغطي مساحة تساوي مساحة القارة الأوربية كلها وبها جبال كثيرة وأنهار عظيمة صالحة للتجارة المائية الداخلية ولذلك تيسرت المواصلات بين أطرافها المتباعدة ، وكانت بها شبكات من القنوات المائية لري مساحات السهول الواسعة . فازداد ترابط الصين بهذه الممرات المائية الصالحة للملاحة ويمتد بعض هذه الممرات المائية نحو ستمائة ميل طولا وقد ارتبطت موانيها العديدة بالحضارات القديمة الشرقية الأخري في الهند وفي الشرق الأوسط أيضاً .

وتعتبر الصين من أغني البلاد بثروتها الطبيعية إذ بها الغابات الفسيحة من الأخشاب الصنوبرية وأخشاب اللاكر والبامبو ، كما تنبت بها نباتات أخري ذات قيمة صناعية عظيمة وقد استخدموا قديماً البامبو وغيره من الأخشاب المتوافرة في المنشآت المعمارية . وكانت كلها مزخرفة بالحفر ومدهونة بدهان من اللاكر الجميل،

وحفروا أفرانا في الصخور الهشة والخزف الذي كان نوعا من تقليد ما صنع في آسيا الصغري ـ وقد سبقت أوروبا في صنع القوالب الرمادية وهي أصلب أنواع الطوب الصناعي المعروف ، واستخدم في تشييد الأسوار ونواصي العمارات . كما يوجد ببلاد الصين مناجم للملون الأزرق الالترامارينى (أزرق زهري) البديع المشهور كما يوجد بها مناجم للرخام وأخري للكاولين وهي المادة الرئيسية في صنع الخزف والبورسلين ، وكانت لطبيعة جو المناطق الشمالية أثر علي شكل العمارة الصينية حيث كان جو المناطق الشمالية بالحدة في ، الشتاء القصير ، حيث تنخفض الحرارة إلي ما دون الصفر بحوالي ثلاثين درجة ثم يعقب الشتاء جو مطر يمتد إلي فصل الصيف ، وتشتد الرياح الموسمية مما أدي إلي بروز الأسقف عن واجهات المباني وشدة ميلها وانحناء زواياها إلي الأعلى للسماح بدخول أكبر قدر من الضوء داخل المباني مع إبعاد أكبر قدر من المطر عنه .

ونظراً لتأصل عقيدة تناسخ الأرواح عند الصينيين فقد عظم احترام الرفات وقدمت لها الأضحيات عند زيارة المقابر التماسا لرعاية الأجيال القادمة من أبنائهم .

وبمرور الزمن أرسيت الحياة الاجتماعية علي الترابط العائلي القائم علي الطاعة العمياء للوالدين .

وقد نشأت في الصين أعداد ضخمة من الملاك وانتعشت الزراعة والتجارة ، وكان لكل طائفة من الناس مساكنهم الخاصة لا

يشيدون لها بديلا . لذلك استمرت الصين بلاد الطبقية الصارمة . ولما حل القرن السادس الميلادي عرف النظام النقابي ولم يعرف الرق في الصين إلا قليلا .

ويمتاز تاريخ الصين بتتابع خطوات المدنية فيها وكان للصين سفراء في العالم القديم وبعد تحالف الصين مع الفرس والرومان عام ٥٥٨م قدم إليها سفراء من بلاد العجم ومن القسطنطينية عام ٦٤٥م . ثم شغلتهم حروبهم مع المغول زمنا ما . وفي القرن العاشر الميلادي أدخلت صناعات الخزف والحراريات إليها . وفي هذا القرن أدركت الصين أقصي توسع في رقعتها .

وقد وجد هذا بالتفصيل في رحلات ماركوبولو التي يصف فيها انتعاش الفنون والحرف والآداب في الصين واستقدام خبراء في صناعة البورسلين الأبيض من بلاد فارس .

وفي القرن السابع دخل الإسلام بلاد الصين وبعد زمن طويل وفد التجار الأربيون إلي الموانى الصينية ناشرين سمومهم المميتة مع معاول الاستعمار الهدامة الأخرى .

وتؤكد الوثائق التاريخية اتصال المصريين بالشرق الأقصي قبل الإسلام وبعده وهذا ما فصله المؤرخون حيث أثبتت البحوث العديدة أن الإمبراطور أمر بإبقاء التجار المسلمين بدياره ، وسمح لهم باتخاذ البيوت الجميلة التي اختلفت أنماطها عن الأنماط الصينية ، مما أدي إلي هجرة الكثيرين من عرفاء المسلمين إلي الصين

واستقروا بها زمنا وكانت أعمالهم باهرة تتسم بالتراث الصيني.

ووفد إليها أيضاً عرفاء من إيران ومنغوليا وكان منهم الحرفيون والتجار واستقر عدد عظيم منهم هناك وقد تحدث المؤرخون عما كان يستورد من الصين من التحف المكتوب عليها بالذهب والجلود اللطيفة الصنعة والنسيج من حرير القز- وقد سار خزافو الفاطميين علي طريق زملائهم الصينيين في حفر سطح الخزف تحت طبقة الدهان المزجج . كما تعلم الخزافون المصريون منهم صناعة البورسلين في عهد المماليك وبرعوا فيها .

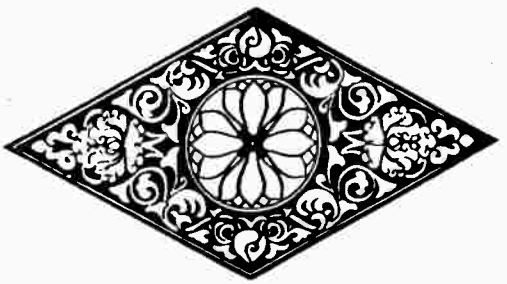

مع ملاحظة ودراسة العراقة العالية للمدنية الصينية ومراحل الإتقان الذي وصلت إليه جميع طرقهم الصناعية قبل عصرنا إلا أنهم لم يظهروا أي تطوير في الفنون الجميلة حيث أوضحت الكتب التاريخية أنه نادرا ما أحرز الصينيون أي شئ يستحق أن يطلق عليه اسم فن العمارة وأن جميع أعمالهم الهندسية التي غطيت بها الأرض كانت كلها خالية من كل من التصميم الهندسي أو الزخارف .

أما زخارفهم التي اشتهرت في العالم أجمع من خلال منتجاتهم الصناعية من كل نوع والتي كانت تستوردها تلك البلاد . فلم يبدو أنهم قد تجاوزوا الحد الذي وصلت إليه جميع المدنيات القديمة .

فكان فنهم دائما علي ما هو عليه من الدقة والإتقان ولم يتناول موضوعاتهم أي تقدم أو تأخر وسارت علي وتيرة واحدة بلا تغير .

ومن ناحية تصور الشكل الخالص في العمل الفني فكان الصينيون خلف المتحمسين الجدد ولكنهم أحرزوا الزخارف التي كانت شائعة فى جميع البلاد الشرقية والاستعداد الفطري في توافق الألوان . حيث كان الاهتمام بتوافق اللون أكثر امتيازا وكفاءة من الناحية الفطرية عن الاكتساب أو التحصيل وهو مجرد توقع .

فالوصول إلي تقدير قيمة الشكل الخالص تعتبر طريقة أكثر حذقا وذكاءً وهي نتيجة إما لإظهار أكثر للفطرة الطبيعية أو للتطوير في الأفكار البدائية علي يد الأجيال الناجحة للفنانين المحسنين لمحاولات بعضهم البعض .

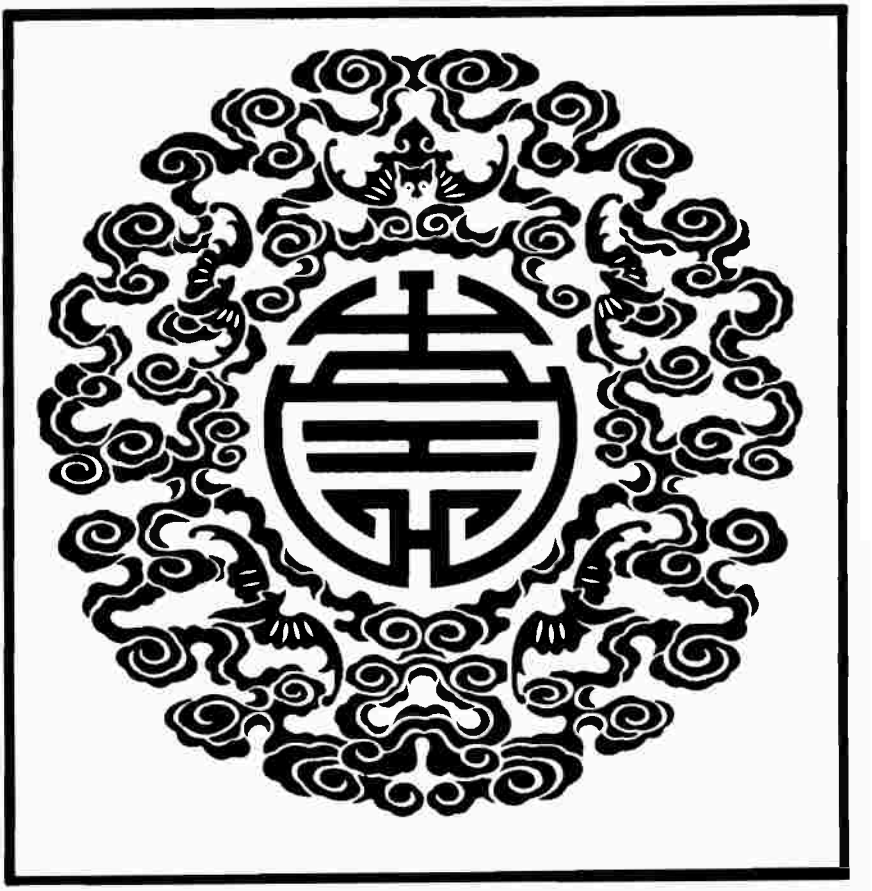

مثال من الكتابة الصينية عبارة عن مزيج من الحروف والرسم المبسط وله دلالته .

هذا الرسم عبارة عن تمنيات بطول البقاء والعمر المديد . محاطة برموز معينة من الخفافيش التي ترمز إلي طول البقاء وتزخرف بها ملابسهم إما بالرسم أو التطريز .

أما الكتابة الصينية فكانت مزيجا بين الحرف الكلمي ورسم مبسط له دلالته متخذين أقلام الغاب للكتابة علي أوراق الأشجار بمداد اللاكر إلي أن استخدم اللاكر الملون في دهان الأواني بلونه الأحمر البديع لاستخدامها في حفلات الشاي الإمبراطوري ثم استخدم اللاكر الملون بعد ذلك للنقش علي سطح الجلود وأواني العطر وعلي الأبواب والأعمدة والأسقف والأثاث المنزلي .

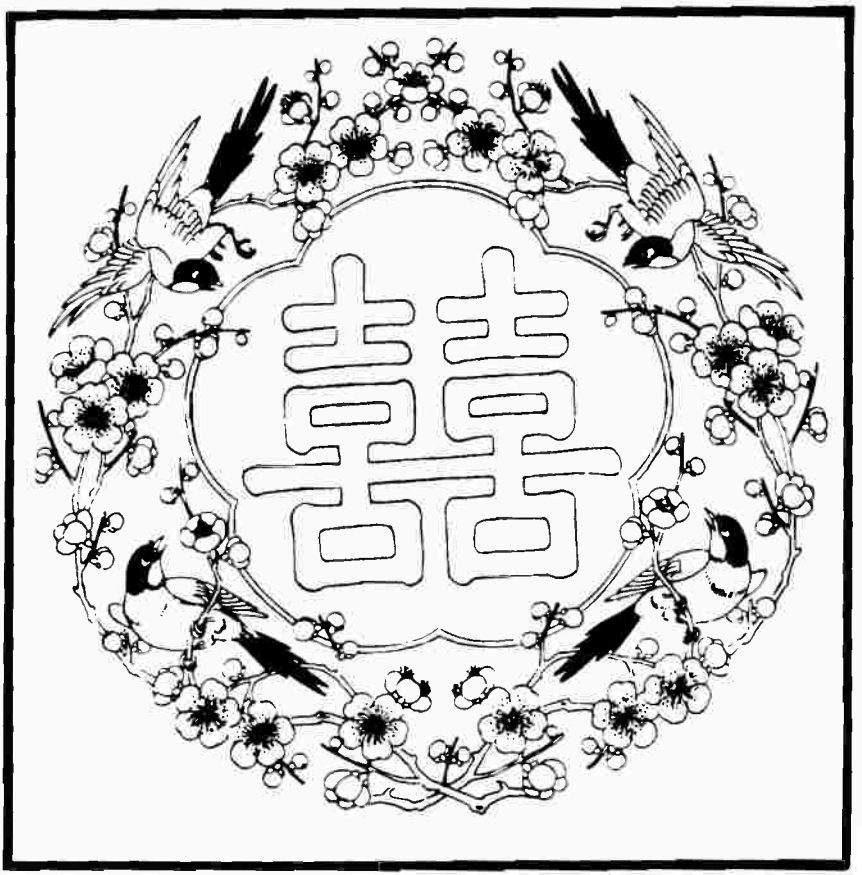

مثال آخر للكتابة الصينية المحاطة بالزخرفة في رسم مبسط له دلالة معينة .

هذه الحروف معناها تمنيات بالسعادة محاطة بالطيور والزهور بشكل زخرفي بديع وغالبا ما ترسم وتطبع أو تطرز علي الملابس .

انتشرت شهرة البورسلين الأزرق والأحمر الزنجفري والوردي وكذا الأخضر السندسي كما برع الصينيون في تطوير الحرير الموشي بخيوط من ذهب خالص ومن فضة ، وكانت الأواني والفازات الصينية تشير إلي جمال خطوطها الخارجية ولكن لم تكن أكثر جمالا من الطراز الفطري للأواني الفخارية المسامية العربية التي تستعمل يوميا لجلب المياه من الترع .

وغالبا ما أفسد الشكل الخالص للأواني الصينية بإضافة الزخارف الساذجة الغير متقابلة علي السطح والغير نابعة من الشكل نفسه والتي منها أثبت أن في إمكانهم تقدير قيمة الشكل ولكن بدرجة أقل في الأهمية .

ومن أبرز علامات الزخارف الصينية التنين والأشكال الهندسية من الأشرطة المتداخلة . ففي الزخرفة الصينية سواء في الرسم أو النسيج أظهر الصينيون انتماء هذا الفن فقط إلي الفطرة والأصالة .

وتبدو محاولاتهم أكثر نجاحا في تلك التكوينات القائمة علي قاعدة هندسية ولكن حتي في هذا الاتجاه عندما ينحرفون عن النماذج المشكلة من تقاطع الخطوط المتماثلة يبدو أن لديهم فكرة غير تامة عن توزيع الفراغات .

ومكنتهم غريزتهم المتفوقة في التلوين من توازن الشكل .

وتوضح الرسوم الإيضاحية في اللوحة رقم (١) أمثلة لذلك . فالنماذج الآتية أرقام ١ ، ٨ ، ١٣ ، ١٨ ، ١٩ .

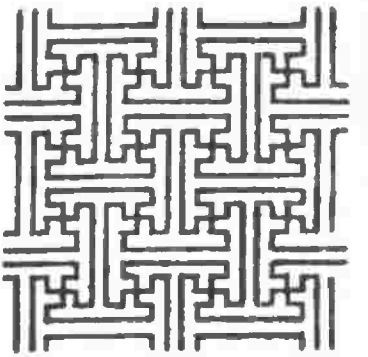

١

٨

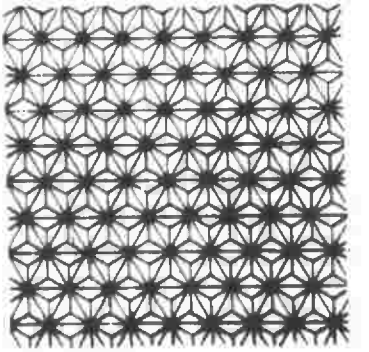

١٣

١٨

١٩

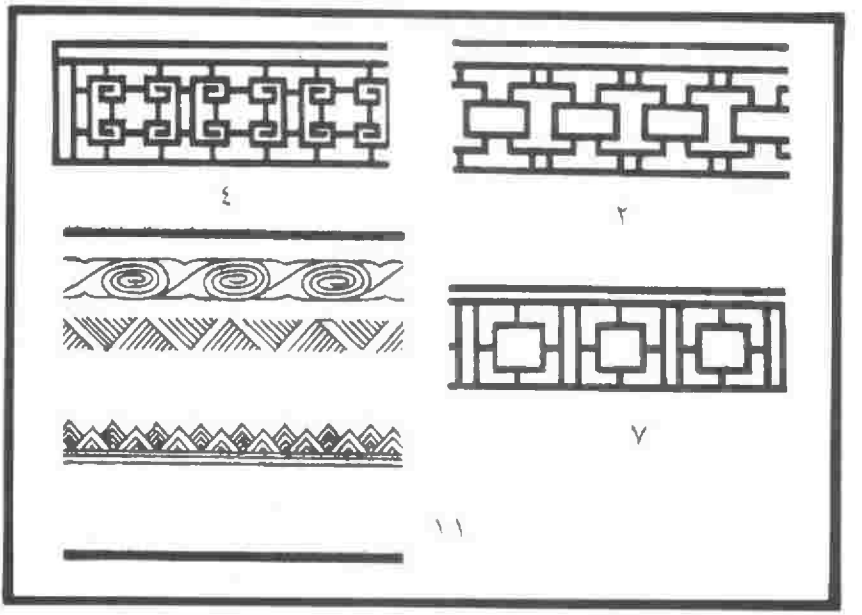

مستنبطة من التوزيع المتماثل من الأشكال وهي أكثر كمالا من النماذج أرقام ٢ ، ٤ ، ٧ ، ١١ .

حيث تعتمد الترتيبات علي الشذوذ عن الأطوار أكثر من السابقة .

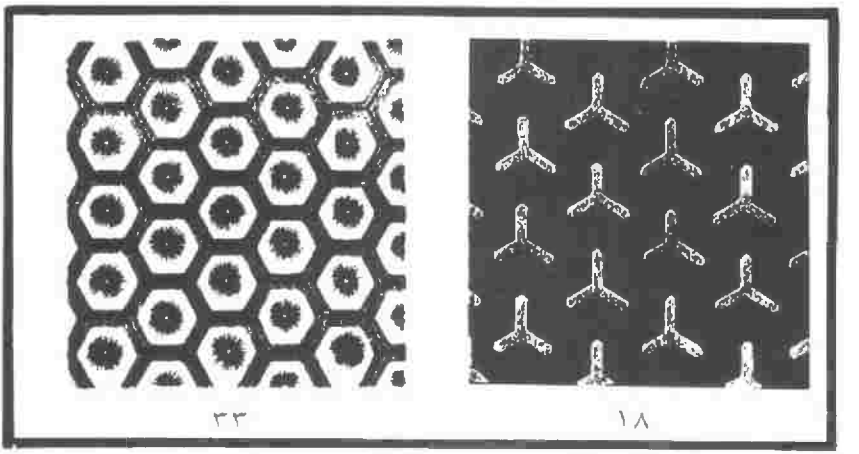

ومن جهة أخري نجد النماذج أرقام١٨ ، ٣٣ ، ٣٥ ، ٤٠ عبارة عن أمثلة تلاحظ فيها أن توازن اللون الفطري المطلوب تجعلنا نهمل أو لانهتم بالكتلة في التصميم .

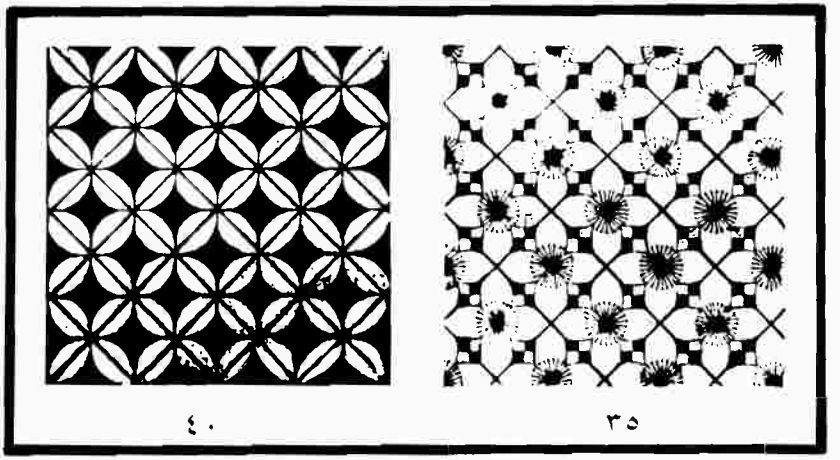

٣٥ ٤٠

وقد اشترك الصينيون مع الهنود في البراعة في قوة صناعة النسيج ودائما تتوافق أرضية النسيج مع الزخارف الموزعة عليه .

والصينيون ماهرون في استعمال الألوان بالتحديد وقادرين علي تحقيق التوازن عن طريق حركة اللون بنجاح متماثل لكل من درجة اللون الكاملة للملون رقة الظلال وتدرج اللون . ولم ينجحوا فقط في استخدام الألوان الأولية بل استعملوا أيضا الألوان الثانوية والثلاثية بأعظم نجاح . وأكثر الألوان تسلطا في الزخرفة الصينية هي الدرجات الفاتحة من الألوان الأصلية . مثل الأزرق الفاتح والبمبي الفاتح والأخضر الفاتح .

وقد استخدمت زهرة الفاونيا بألوان مقاربة للطبيعة في تزيين الأسقف مع تأكيد ظهورها بلون مغاير كالأزرق والألترامارينى أو الأحمر الزنجفري ولهذه الألوان مدلولها الخاص ورمزيتها في الأفئدة مما يتصل بالعادات الصينية القديمة .

فالأزرق السماوي رمز لمعبد السماء ويتخذ كذلك في الملابس والأواني الكهنوتية .

أما الأصفر فكان رمزا لمعبد الأرض ولونت توابعه بنفس اللون

واختير الأحمر لمعبد الشمس والأبيض لمعبد القمر وتوابعه .ويرتدي الكهان نفس لون المعبد .

وكان للصينيين ولع باستخدام الزخارف المنوعة والألوان البادية في أشكال الطير والزهور البديعة ، ونجد ذلك في الأشكال الأصلية الزخرفية أو التقليدية بخلاف الأشكال الهندسية فقد أحرز الصينيون القليل فى هذا المضمار . وفي الأمثلة الموضحة فيما يلي أرقام ١ ، ٣ ، ٥ ، ٧ ، ٨ نجدهم لم يتبعوا الزخرفة التقليدية مثلما وجدنا في جميع الأنماط الأخري حيث تمد المساحة دائما بتمثيل للزهور الطبيعية متداخلة مع الزخرفة الخطية مثل النماذج أرقام ١٧ ، ١٨ أو الفاكهة كما في اللوحة رقم ٤ وفي جميع الحالات نجد أنه طالما أن غريزة الصينيين تحصرهم في الحد الطبيعي ، ومع أن التسويات عامة تكون غير طبيعية وغير فنية ، لذلك فهم لم يستعملوا الظلال كما في الفنون الأخري التي تخرج عن الواقع وثبتوا علي الشكل الطبيعي . وفي معلقاتهم الورقية المطبوعة نجد أن معاملتها كلها لكل من رسم الأشخاص والمناظر الطبيعية والزخرفة تكون تقليدية إلي أبعد حد . كذلك ومع أننا ربما نشعر بأنها غير فنية فنحن لا نصدم بمجاوزة حدود القوانين الزخرفية .

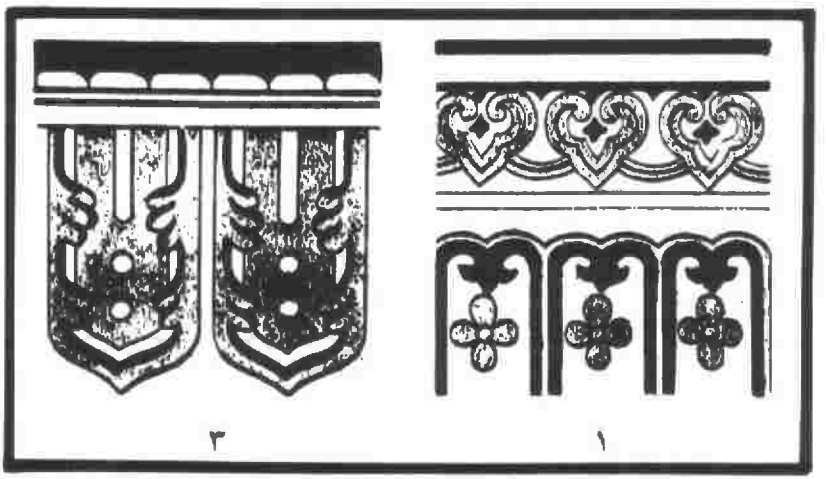

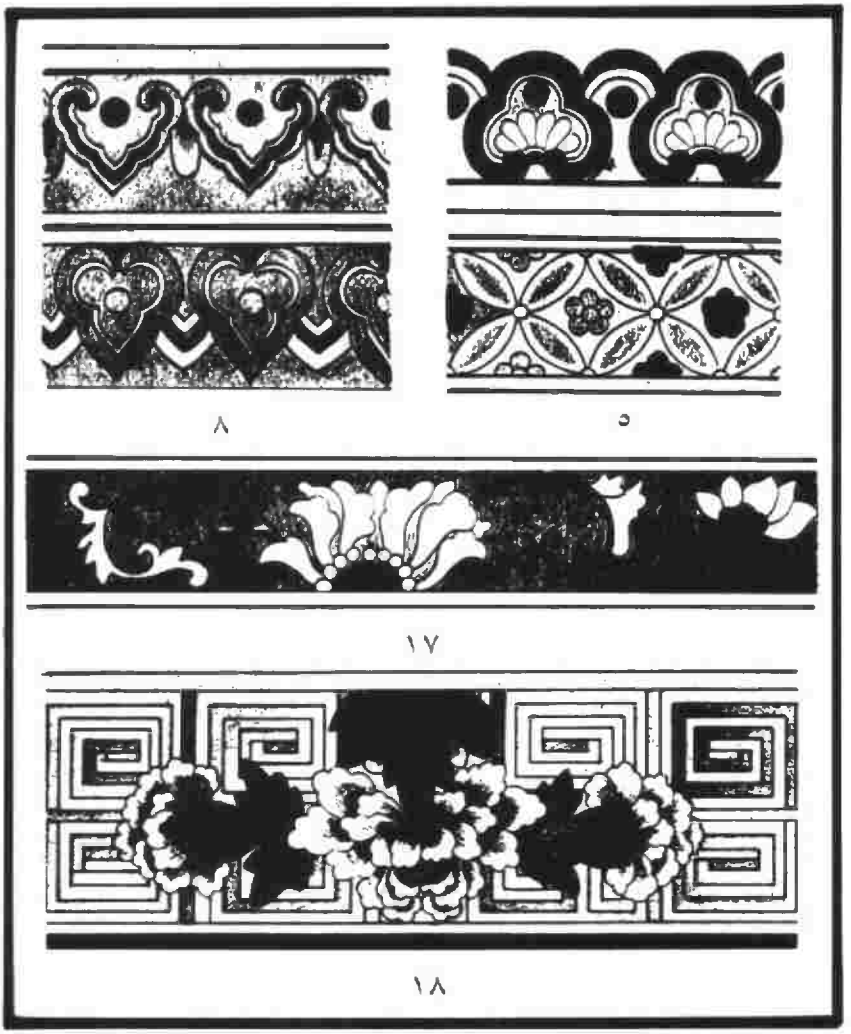

٨ ٥

١٧

١٨

ففي أمثلتهم الزخرفية من الزهور ـ فضلا عن ذلك ـ نجدهم دائما يحافظون علي القوانين الطبيعية للتشعب من الفرع الرئيسي وتماس المنحنيات وظلها .

وانتعش التصوير الفني في الصين خلال القرن العاشر الميلادي واستمر منتعشاً ثلاثة قرون متتابعة ، أبرز خلالها كثيراً من صور الحياة الجارية بطريقة رائعة كما رآها الفنان ، وقد سجلت المناظر الطبيعية مباشرة

بالريشة ، سواء لتصوير الحياة أو مواقف معينة من الشعر والأدب . وقد كان الصينيون أول من ألف دائرة معارف مما يبرز المكانة العلمية المرموقة للصينيين ، وتعبر الصورة الصينية عن الحياة الجارية ، نسقها الفنان بحسه المرهف . فرسم الربيع المبكر بألوانه البهيجة ، والخريف بألوان تعبر عن الشجن . وكذلك تسجيل شروق الشمس خلف حقول الأرز الواسعة وهكذا كانت أعمالهم البارعة تعبيراً عن الحياة الجارية . ولايمكن للزخرفة الصينية أن تكون علي العكس من ذلك حيث أن الصفة المميزة للصينيين هي أمانتهم في النقل والتقليد ونحن لذلك نستنتج سبب أمانتهم في النقل من الطبيعة .

وقد سبق الإشارة ـ عند الحديث عن الفن الإغريقي ـ عن مميزات زخرفة الحليات الصينية رقم ١ لوحة ٣ وهي عبارة عن تعرجات مستمرة مثل زخرفة الحليات الإغريقية . والأمثلة رقم ٢ ـ ٩ ، ١٨ عبارة عن أمثلة لحليات غير منتظمة . والمثال رقم ٤ في لوحة رقم ٢ عبارة عن مثال بديع نادر لحلية بنهايات منحنية .

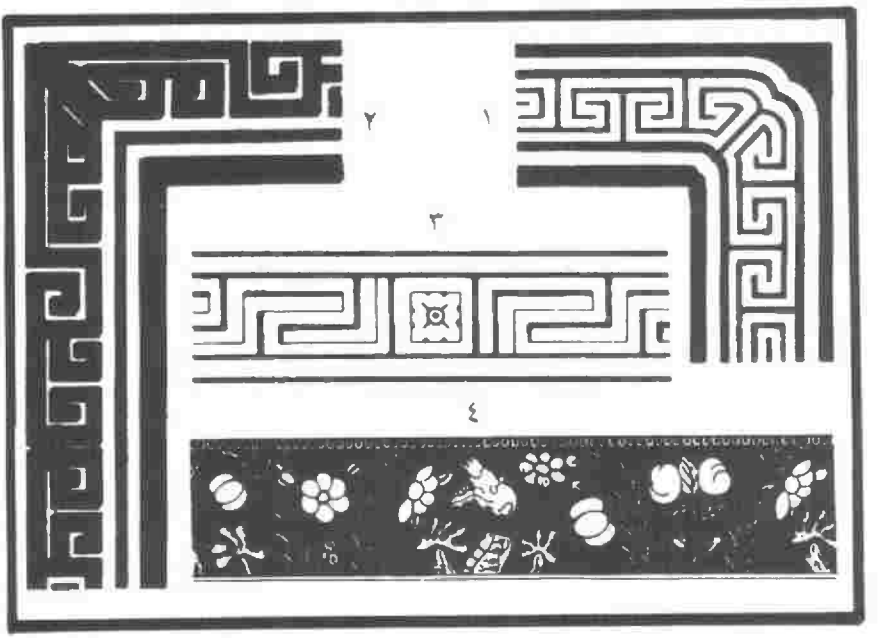

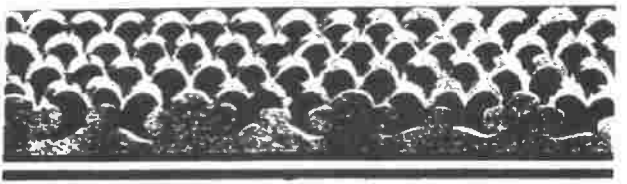

٥

٦

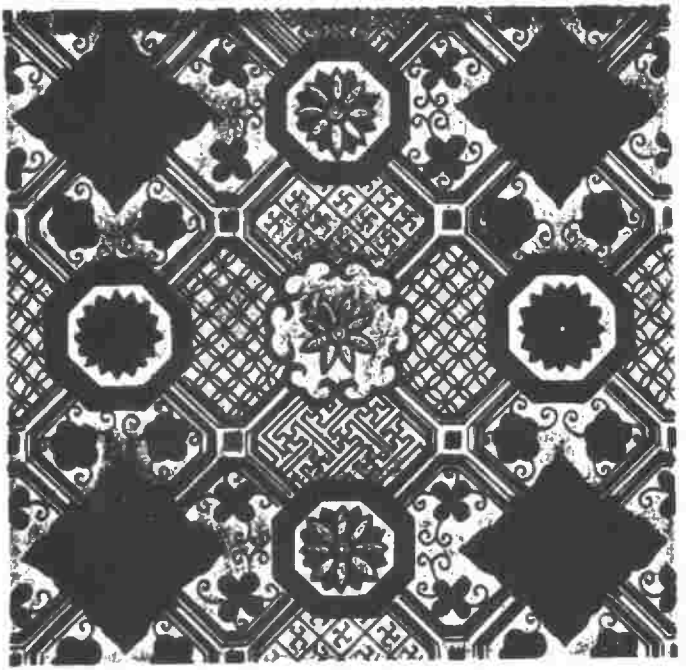

٧

٨

٩

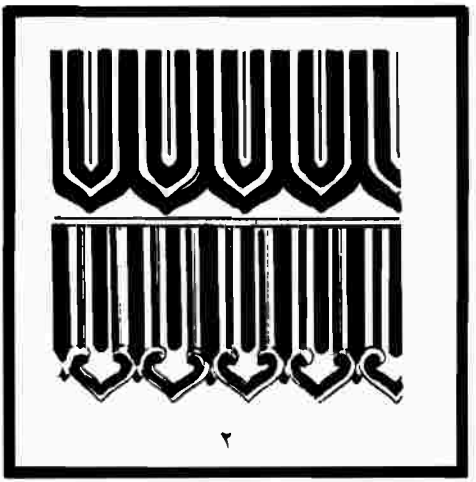

٢

وعلي كل فالزخرفة الصينية تعبير بأمانة فائقة عن الطبيعة لهؤلاء الناس المميزين والذين ترفض شخصيتهم المميزة التغيير أو الشذوذ عما هي عليه ، ولا نستطيع أن نطلق علي هذا خروجاً عن المألوف فالخروج عن المألوف يلعب دوراً جميلاً في الخيال الحي، فالصينيون غير خياليين بالمرة ولذا فإن جميع أعمالهم ـ بناءً علي ذلك ـ تفتقر إلي أعلي درجات السمو في الفن أو المثالية .